تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان

بقلم
الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

أولا : سيرة حياة

إن مصادرنا فى الترجمة لحياة جرجى زيدان — مؤرخ العرب والإسلام والحضارة الإسلامية والأدب العربى — كثيرة متنوعة ، فقد تناولته بالدراسة والترجمة بضعة كتب ظهر بعضها فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر فى حياة الرجل ، كمثل كتاب « مرآة العصر » الذى أصدره إلياس زخورة سنة ١٨٩٧ فى ثلاثة أجزاء ، فكان أقدم مصادرنا لسيرة هذا الرجل المتعدد جوانب الثقافة .

على أن هناك ترجمة مختصرة دقيقة له ملحقة بآخر كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، أو على وجه الدقة ملحقة بذيل الجزء الرابع من هذا الكتاب ، الذى لم يكد الرجل ينتهى من تأليفه حتى فاجأته المنية فى شهر يوليو سنة ١٩١٤ ، فرأى القائمون على إصدار الكتاب من أسرة دار الهلال أن يختموه (بخلاصة ترجمته وذكر مؤلفاته على ما يقتضيه موضوع الكتاب . . .) .

وتكاد تدانى هذه الترجمة من ناحية الزمن ، تلك الترجمة الموجزة الدقيقة التى كتبها الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير « المقتطف » بقلمه فى عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ من مجلة « المقتطف » فلم تزد على صفحتين ، ولكن جاء فى متنها وهامشها تصحيح مهم لما جاء فى الترجمة الملحقة بكتاب تاريخ آداب اللغة العربية خاصاً باشتراك جرجى زيدان فى تحرير المقتطف ، فقد جاء فى تلك الترجمة أن إدارة المقتطف طلبت إلى جرجى زيدان سنة ١٨٨٦ « أن يتولى إدارة أشغالها ، والمساعدة فى تحريرها ، ففعل ». ولكن الدكتور يعقوب صروف فى ترجمته لجرجى زيدان أنكر أن يكون صاحبنا قد حرر فى « المقتطف » شيئاً ، إلا خاتمة السنة الحادية عشرة ، وهى نصف صفحة فقط ، كتبها جرجى زيدان لما كان مشتغلا بادارة المقتطف ! ومعنى هذا أن الثمانية عشر شهراً التى اشتغل فيها جرجى زيدان بالمقتطف كانت (للأدارة) فقط ، ولم يجر فيها قلمه (بالتحرير) إلا على نصف الصفحة التى أشار إليها الدكتور يعقوب صروف . . .

وقد اضطر صروف — على أدبه وحيائه — إلى تصحيح هذه الواقعة « إظهاراً للحقيقة » كما قال فى تأبينه وترجمته لزميله وصديقه جرجى زيدان. . . وعلى الرغم من هذا التصحيح المنشور فى مجلة المقتطف سنة ١٩١٤ ظل كثيرون من مؤرخى سيرة جرجى زيدان ومترجمى

حياته يقعون فى الوهم ، ويذكرون أن جرجى زيدان قد شارك فى تحرير المقتطف . ومن هؤلاء الأب لويس شيخو اليسوعى الذى ذكر فى كتابه « الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين » أن مجلة المقتطف انتدبت جرجى زيدان « ليكتب فيها ، فنشر عدة مقالات مستحسنة » ! ! مع أن هذا الندب كان للإدارة لا للتحرير . وقد جرى على هذا الوهم بغير تحقيق لفيف من أفاضل المحققين الذين نكن لهم كل تقدير ، كالأستاذ عمر رضا كحالة فى موسوعته الكبيرة العظيمة « معجم المؤلفين » ، والأستاذ طاهر الطناحى فى الفصل الجيد الذى كتبه فى كتاب « عصاميون عظماء من الشرق والغرب » ، والأستاذ محمد رجب البيومى فى البحث الطيب الذى كتبه عن جرجى زيدان فى العدد ٥٢٢ من مجلة الثقافة ، الصادر فى ٢٨ من ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، والدكتور محمد يوسف نجم فى كتابه « القصة فى الأدب العربى الحديث » ، وهو ينقل عن الترجمة الملحقة بتاريخ آداب اللغة العربية نقلا حرفياً .

وهذه الحقيقة فى سيرة حياة جرجى زيدان قد آن لها اليوم أن تتضح بعد أن ظلت منزوية فى ركن من الإغفال والنسيان منذ قام بتصحيحها والتنبيه إليها الدكتور يعقوب صروف فى سنة ١٩١٤ :

ولو أن هذا التصحيح المهم قد جاء من رجل غير أستاذنا المغفور له الدكتور صروف ، الذى عرفنا الكثير من خلقه العظيم ، لقلنا إنه تصحيح ذو غرض ، ولكن الرجل كان صادقاً فى تصحيحه — كعهده فى أمره كله — وما علمنا أن أحداً قام بالرد على الدكتور يعقوب صروف ليناقضه فى هذه الحقيقة التى لا نعلم له مصلحة خاصة فى تصحيحها .

وليست هذه هى الواقعة الوحيدة فى حياة جرجى زيدان التى تحتاج إلى تصحيح ، فهناك تاريخ وفاته الذى اضطرب فيه بعض من ترجموا له . فقد ذكر « معجم المؤلفين » أنه توفى بالقاهرة فى ٢١ أيلول « سبتمبر » سنة ١٩١٤ . وذكر شارحو ديوان الشاعر محمد حافظ إبراهيم المطبوع سنة ١٩٣٧ أنه توفى فى شهر أغسطس سنة ١٩١٤ ، بل ذكرت مجلة المقتطف فى عدد أغسطس سنة ١٩١٤ أن صاحب الهلال توفاه الله بغتة فى يوم الثلاثاء مساء فى ٢١ يوليو سنة ١٩١٤ . . ولا نجد مفراً من أن نأخذ بقول أهل الفقيد أنفسهم ، فهم أدرى بتاريخ وفاة فقيدهم ، كما هم أعلم بكثير من أمره ، فقد جاء فى الترجمة التى ظهرت فى ذيل الجزء الرابع من « تاريخ آداب اللغة العربية » أن مؤلف هذا الكتاب توفى فى ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ .

على أن هذا الخلاف اليسير الهين فى يوم وبعض يوم ، وشهر بعض شهر ، يذكرنا بمواقع فيه مترجمو سيرة المفكر الثائر : أديب اسحاق ، فقد كادوا يجمعون على أن وفاته كانت سنة ١٨٨٥ ، إلا واحداً فقط هو المستشرق الدكتور كرنيلوس فانديك ، الذى ذكر تاريخ الوفاة صحيحاً فى سنة ١٨٨٤ ، حيث يؤكد هذا قرينة أخرى قوية ، وهى أن نعى أديب أسحاق فى المقتطف كان فى عدد يوليو سنة ١٨٨٤ فليس من المعقول أن تكون الوفاة قد وقعت فى سنة ١٨٨٥ [1] ! !

هاتان حقيقتان لا بد من تصحيحهما والتنبيه إليهما فى معرض الحديث عن جرجى زيدان ، بمناسبة الحديث عن كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وما عدا ذلك من الحقائق والوقائع مما يتصل بسيرة هذا المؤرخ اللغوى الأديب الكبير فلا اعتراض لنا عليه :

وإذا كانت بضعة من الكتب قد أمدتنا بمعلومات هامة عن سيرة جرجى زيدان ، كما أن عشرات من المقالات فى المجلات قد زودتنا بحصيلة من المعارف

(١) كان لنا حظ السبق إلى تصحيح تاريخ وفاة أديب اسحاق فى بحث لنا نشر بمجلة « المعرفة » التى تصدر بدمشق عدد شهر فبراير سنة ١٩٦٥ .

الضرورية للترجمة لحياة المؤرخ زيدان ، فأن هناك « مذكرات خاصة » للرجل قد رجع إليها ونقل عنها الأستاذ طاهر الطناحى ، وهو يترجم لصاحبنا فى كتاب « عصاميون عظماء من الشرق والغرب » الذى أصدرته دار الهلال سنة ١٩٥٤ . ولا شك أن هذه المذكرات التى كتبها صاحبها فى جو من الصراحة التامة وعدم التحرج من ذكر الفقر وصعوبات الحياة — تلقى أضواء ساطعة قوية على حياة هذا الرجل الذى تعد سيرته درساً عظيما لكل من يريد النجاح فى الحياة .

وتدلنا مذكرات جرجى زيدان الخاصة ، على طراز من الرجال ندر أن تقع العين من مثله على كثير . فكثير من الناس — وخاصة من بلغوا شيئاً فى الحياة — يتنكرون لماضيهم ، ويستحون أن يذكر هذا الماضى البئيس أمامهم أو يذكروه هم على أطراف ألسنتهم . . ويحاولون أن يطمسوه طمساً ، ويودون — بجدع الأنف — لو محى من تاريخهم . . . ولكن العصامى جرجى زيدان كان غير هذا . . لقد كان أبوه صاحب مطعم متواضع فى بيروت ، وقد جمع إلى الفقر الأمية فى العلم ، فلم يظفر بتعليم . . . ولكن ذلك لا يمنع صاحبنا أن يقول فى مذكراته : « نشأت فى صباى وأنا أرى والدى يخرج إلى دكانه فى الفجر ، ولا يعود إلا فى نحو منتصف الليل أو قبيله ، وأرى والدتى لا تهدأ لحظة من الصباح إلى المساء . . . » .

واضطر الغلام جرجى زيدان — وهو فى الحادية عشرة — أن يجيب دعوة أبيه إياه لمساعدته فى المطعم ، ولو كاتباً للحسابات على الأقل ! ووجد الأب من ابنه عوناً نافعاً فحبسه فى المطعم وحجزه عن إتمام تعليمه الذى كانت نفسه تتحرق إليه . . . وخشيت الأم وخشى معها ابنها على مستقبله . ويحدثنا جرجى زيدان فى مذكراته الخاصة بعبارته السمحة الطيبة قائلا : « ولما مضى على اشتغالى فى ذلك المطعم عام وبعض العام ، خافت والدتى أن يطول مقامى ويضيع مستقبلى . وكانت تكره المطاعم . وكانت منذ طلبنى والدى لمساعدته تلح عليه أن لا يطول مقامى ، وهو يعدها . . فلما مضت السنة الأولى ألحت عليه أن يخرجنى ويعيدنى إلى المدرسة ، فقال لها : إنه قد أتم دروسه ، ولا فائدة من كثرة الدرس ، إلا إذا كنت تنوين أن تجعليه كاتباً أو معلماً ، فضلا عن أن كثرة التعليم تجعله متفرنجاً متأنقاً ، لا يأكل إلا بالشوكة والسكين ، وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الأفرنجى . . . ! ! » .

على أن هذا المطعم كان نعمة كبرى على الغلام جرجى زيدان فيما بعد . . . فقد كان — بمن يحويهم من نخبة الطاعمين — مثاراً لطموح الفتى واتساع اهتماماته . ففيه التقى باليازجى ، وعبدالله البستانى اللغوى وغيرهما ، واستمع إلى أحاديثهم ومناقشاتهم ، وفيه التقى بطلبة الطب فى الكلية الأميركية التى أنشأتها الإرسالية الأمريكية فى بيروت سنة ١٨٦٦ . ولا شك أن هؤلاء الطلبة قد أثاروا حماسته لطلب العلم . ولا شك أنهم هم الذين دلوه على طريق الدخول فى مدرسة الطب هناك . فدرس العلوم الإعدادية التى تؤهله للالتحاق بقسم الطب فى الكلية سنة ١٨٨١ . ولم تزد مدة دراسته الإعدادية هذه على شهرين ونصف شهر . وتصور لنا هذه المدة القصيرة روح العزيمة والجد التى تجلت فى الفتى منذ أول أمره . وإلى هذه الروح يشير خليل مطران فى رثائه له بقوله :

ألا فى سبيل الله حكمتك التى
جلاها « هلال » مالىء الكون مقمر
وجد به رضت الصعاب ، فما كبا
إلى أن دهـاه جـدك المتعـثر

ولقد كان لهذا المطعم أثر آخر فى اهتمامات جرجى زيدان التى تجلت بعد هذا فى اطلاعاته الواسعة على حفنة من اللغات الأجنبية . فقد التقى فيه بأحد الحرفاء

« الزبائن » المترددين عليه للطعام ، — وهو المعلم مسعود الطويل — الذى كان يشتغل بتعليم الشبان اللغة الإنجليزية فى مدرسة خاصة فتحها لهذا الغرض ، ولم يتوان جرجى زيدان عن الانضمام إلى هذه المدرسة المسائية ، وما هى إلا خمسة أشهر حتى كان صاحبنا يقرأ « رحلة كوك » بالإنجليزية فى سهولة ويسر .

وكان كتاب رحلة كوك أول كتاب يقرؤه الفتى بالإنجليزية ، إلا أن كتباً عربية كثيرة قد سبقت إلى يديه ، وحصل عليها بماله الذى كان يقتطعه من مصروفه . والغرام بشراء الكتب واقتنائها — مهما كانت أثمانها — ظاهرة تلفت النظر فى حياة زيدان . ويروى لنا هو نفسه فى مذكراته الخاصة كيف اقتنى لأول مرة فى حياته كتاب « مجمع البحرين » للشيخ ناصيف اليازجى ، فيقول : (كنت أسمع بكتاب مجمع البحرين ، وأحب اقتناءه . لكنى كنت أستغليه ، لأن ثمنه على ما أظن كان أربعة فرنكات أو خمسة . ففى ذات يوم كنت جالساً بالمطعم ، فمر غلام وبيده هذا الكتاب مستعملا ، وهو يعرضه للبيع ، فاشتريته منه بتسعة قروش بيروتية ، أى أقل من نصف ثمنه ، وفرحت به كثيراً . ولما رجع والدى سألنى عنه ، فأخبرته أنى اشتريته بتسعة قروش ، فزعل ، وقال : « أتدفع فى هذا الكتاب تسعة قروش ، وتبدل الدراهم بورق ؟ » . فزعلت ، ولم أجبه . ولما انصرفنا للبيت فى فى المساء ، وكانت الوالدة قد أعدت لنا العشاء ، أظهرت أنى لا أريد الطعام ، وذهبت للنوم ، وأنا أتوقع أن يدعوانى ، ولا يتركانى أنام جائعاً . وسمعت والدتى تعنف والدى لإغضابى حتى نمت بلا أكل ، ولكنه أصر على رأيه . . . واتفق أن جاء أمين فياض — أحد أصدقاء والدى — للسهرة عنده فى تلك الليلة ، وكان يتودد إلى ، فسأل عنى ، فقيل له إنى نمت . واغتنمت والدتى هذه الفرصة ، وشكت إليه عناد والدى . فسأله عن سبب غضبه ، فقال : « إنه يصرف الدراهم فى شراء الورق بلا فائدة ! » فأجابه : « اشكر الله الله يا أبا جرجى أن ابنك ينفق الدراهم فى شراء الكتب ، وليس فى السكر ونحوه . إنها نعمة يجب أن تشكر الله عليها » وسمعت كلمات هذا الصديق وأنا أتظاهر بالنوم وللحال اشتد ساعد والدتى ، وقامت فأيقظتنى ، وأجلستنى إلى المائدة ، وطيبت خاطرى ، وكذلك والدى . . . ولا تزال هذه الحادثة نصب عينى . .) .

لقد كان الحافز إلى التعلم عند جرجى زيدان شخصياً وطبيعياً ، ولكن ظروفاً مواتية أعانت على تقوية هذا الحافز ودفعه إلى الأمام ، على الرغم من عدم مواتاة الظروف المادية التى كانت تعيش فيها أسرته . ولم يبال الفتى بهذه الظروف المعاكسة وحاول دائماً أن يتغلب عليها . وعلى أبواب السنة العشرين من عمره ، وفى سنة ١٨٨٠ ، كانت قد ظهرت الطبعة الثانية لكتاب « سر النجاح » لصمويل سميلز الذى ترجمه الدكتور يعقوب صروف وأصدرته مطبعة المقتطف ، وفى هذا الكتاب صور لنماذج بشرية نجحت فى الحياة ، وتغلبت على ما فيها من عقبات ، استناداً إلى العزيمة والدأب ، والجد والكفاح ،وعدم تسرب الملل واليأس إلى النفس. واقتنى الفتى نسخة من هذا الكتاب ، ورأى بعد قراءته أن المطالب العالية فى الحياة لا يقف دونها ما قد يتوهمه الناس حوائل وموانع . وكانت قراءته لهذا الكتاب مما دفعه دفعاً إلى الالتحاق بقسم الطب بالكلية الأمريكية :

ودخل جرجى زيدان مدرسة الطب ببيروت سنة ١٨٨١ ، وكان من أحسن طلابها استماعاً للأساتذة ، وإقبالا على العلم ، وعكوفاً على الدرس ، على الرغم من انشغاله فى الوقت نفسه بأمور معاشه . وتشير المصادر إلى أنه اضطر إلى ترك كلية الطب فى العام الثانى بسبب «الاختلال المشهور الذى حصل فى تلك المدرسة»[1]

(١) الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين — للأب لويس شيخو ص ٧١ .

ويشير مصدر آخر حديث إلى أنه فى سنة ١٨٨١ وقعت فى الكلية حادثة « الحرية الفكرية » ، ويشير الأب لويس شيخو — نقلا عن مجلة الهلال — إلى ما حدث فى المدرسة من المنازعات التى كان لزيدان فيها نصيب وافر ، ثم ما حصل بين المعلمين من الانقسام بسبب التعليم بالإنجليزية بدلا من العربية .

وقد استطعت بعد طول تنقير وتنقيب أن أجد فى السنة السابعة من مجلة المقتطف تفصيلا — بقلم الدكتور يعقوب صروف نفسه — لحادث المدرسة الكلية الطبية ببيروت ، وما لابسه من استقالة ثلاثة من المشتغلين بالتدريس فيها ، وهم الدكتور كرنيلوس فانديك المستشرق المشهور ، وأستاذ الباثولوجيا بها ، والدكتور أدون لويس أستاذ الطبيعيات والكيمياء ، والدكتور وليم فانديك نجل العلامة كرنيلوس ومدرس المـــادة الطبية والحيوان بالكلية .

واتجه جرجى زيدان بعد ذلك إلى دراسة الصيدلة بدلا من الطب مع لفيف من رفاقه المبعدين من الكلية ، وامتحنته لجنة خاصة محايدة من علماء سورية وأطبائها ، منهم الكولونيل مراد بك حكيمباشى العسكر ، والدكتور فانديك ، والدكتور لويس ، فنال شهادة الصيدلة بالنجاح فى العلوم الآتية : اللغة اللاتينية ، والطبيعيات ، والحيوان ، والنبات ، والجيولوجيا ، والكيمياء العضوية والمعدنية ، والتحليل الكيمى ، والمواد الطبيعية ، والأقرباذين العلمى والعملى .

وجاء إلى مصر بعد ذلك ، ورغب أن يدخل مدرسة الطب المصرية ، ولكن طول الدراسة فيها صرفه عنها ، فاشتغل بالعلم ، والصحافة محرراً فى جريدة « الزمان » . ورافق الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ مترجماً . وقد أكسبته هذه الرحلة كثيراً من التجارب الجديدة عليه .

وفى سنة ١٨٨٥ عاد إلى بيروت من مصر ، وكانت قد سبقته إليها شهرته العلمية واللغوية التى كسبها بقراءاته الواسعة ، فانتخب عضواً بالمجمع العلمى الشرقى . وهناك تعلم العبرانية والسريانية وأتقنهما وأضاف إليهما بعض اللغات السامية والشرقية الأخرى .

وفى سنة ١٨٨٦ زار إنجلترة وجال جولة مفيدة فى متاحفها ومكتباتها الشهيرة . وفى شتاء العام نفسه عاد إلى مصر حيث طلب إليه أصحاب مجلة المقتطف أن يتولى « إدارته » لا « تحريره » كما سلف القول ، فنهض بالعبء على خير وجوهه . ولكنه آثر أن يستقل بالعمل وحده ، فاستقال من إدارة المقتطف سنة ١٨٨٨ حيث تفرغ للكتابة والتأليف ، وفى هذه الفترة أتم تأليف كتابه « تاريخ مصر الحديث » .

ولم يكن « تاريخ مصر الحديث » أول الكتب التى ألفها جرجى زيدان ، فقد سبقه بضعة من الكتب ، ولعل أول كتاب ألفه هو « الفلسفة اللغوية » الذى ظهر سنة ١٨٨٥ والذى قدمه إلى الهيئات والمجامع العلمية الدولية ، فظفر بعضوية « المجمع الآسيوى الملكى » فى إيطاليا . وتستطيع أن تحكم على العبقرية المبكرة لهذا العالم البحاثة إذا عرفت أنه أتم تأليف « الفلسفة اللغوية » ولم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين . . .

أما أولى روايات جرجى زيدان التاريخية ، فهى رواية « المملوك الشارد » التى أتمها حوالى سنة ١٨٩٠ ، والتى تصور عصر محمد على أدق تصوير .

وإذا كان كتاب « الفلسفة اللغوية » هو أول كتاب علمى لغوى ألفه جرجى زيدان ، فأن كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » هو آخر كتاب علمى أدبى صنفه ، فما كاد ينتهى من الجزء الرابع فى صيف سنة ١٩١٤ حتى أدركته منيته فى شهر يوليو من العام نفسه ، على أن أول جزء من هذا الكتاب — الذى هو موضوع بحثنا اليوم — قد صدر فى صيف سنة ١٩١١ ، فكأنه قضى

فى تأليف هذا الكتاب ثلاث سنوات ، وإن كان قد نشر طائفة من فصوله فى مجلة « الهلال » سنة ١٨٩٤ أى بعد صدورها بعامين اثنين .

ولقد دخل جرجى زيدان ميدان الصحافة الأدبية بأنشائه مجلة الهلال الشهرية سنة ١٨٩٢[١] . وفى أول سبتمبر من ذلك العام صدر أول أعداد الهلال يحمل فيما يحمله من مقالات وبحوث ودراسات ، مقدمة لمنشئه ، يكشف فيها عن خطته وأهدافه من إصدارها قائلا : « لا بد للمرء فيما يشرع فيه من فاتحة يستهل بها ، وخطة يسير عليها ، وغاية يرمى إليها . أما فاتحتنا فحمد الله على ما أسبغ من نعمه ، وأفاض من كرمه . والتوسل إليه أن يلهمنا الصواب ، وفصل الخطاب ، وأما خطتنا فالإخلاص فى غايتنا ، والصدق فى لهجتنا ، والاجتهاد فى وفاء حق خدمتنا . ولا غنى لنا فى ذلك عن معاضدة أصحاب الأقلام من كتبة هذا العصر فى كل صقع ومصر ، أما الغاية التى نرجو الوصول إليها ، فأقبال السواد على مطالعة ما نكتبه ، ورضاؤهم بما نحتسبه ، وإغضاؤهم عما نرتكبه. فأذا تيح لنا ذلك كنا قد استوفينا أجورنا ، فننشط لما هو أقرب إلى الواجب علينا . . »

وعلى الرغم من دخول « الهلال » ميدان الصحافة الأدبية منافسة « للمقتطف » التى أنشئت قبلها ببضعة عشر عاماً[٢] ، فقد استقبلت الرصيفة القديمة زميلتها الجديدة استقبالا كريماً فى باب «الهداياوالتقاريظ » من عدد سبتمبر سنة ١٨٩٢ ص ٨٤٤ ، معرفة بها وبأبوابها ، مثنية على « منشئها الكاتب الفاضل جرجى أفندى زيدان » ، موجزة الحديث عن انسجام عبارتها وجمعها لأشتات الفوائد ، متمنية لها أتم النجاح .

وقد ظل اسم « الهلال » وجرجى زيدان متلازمين حتى بعد وفاة صاحب الهلال سنة ١٩١٤ . وما أغفل شاعر أو كاتب أو خطيب هذا التلازم فى حفل التأبين الذى أقيم لجرجى زيدان فى نادى الاتحاد السورى فى ٢٨ مايو سنة ١٩١٥ ، أى بعد عشرة أشهر من وفاته . فنجد الشاعر أحمد شوقى يقول :

قد أكمل الله ذياك « الهلال » لنا
فلا رأى الدهر نقصاً بعد إكمال
ولا يزل فى نفوس القارئين له
كرامة الصحف الأولى على التالى
فيه الروائع من عـلم ومن أدب
ومن وقـائع أيام وأحـوال
وفيـه همـة نفس زانها خلق
همـا لبـاغى المعالى خير منوال

ونجد الشاعر حافظ إبراهيم يقول عن زيدان صاحب « الهلال » ، واليازجى صاحب « الضياء » :

وكم فزت من رب « الهلال » بحكمة
وكم زنت من رب « الضياء » بيانى

ثانياً : آثاره ومؤلفاته

لقد كان جرجى زيدان متعدد النواحى الثقافية ، فلم يقف بالمعرفة عند حد . وقد هيأته ثقافته الطبية والصيدلية والطبيعية الأولى لكى يكون مؤرخاً وأديباً ولغوياً علمى المنهج . فهو مؤرخ أدب لم تجنح به عاطفة ولم يمل به خيال فى الأحكام . وإنما هو صاحب عقلية علمية منهجية تجريبية . وقد ظهرت هذه العقلية فى أكثر ما كتبه وألفه من كتب . فحين أخرج لنا كتابه« تاريخ مصر الحديث » ، مبتدئاً من تاريخ الفراعنة حتى العصر الحديث ، لم يكتف بالانكباب على الكتب يقرؤها ويستخرج منها مادة كتابه التى نسقها تنسيقاً بديعاً ، ولكنا رأيناه يتجه إلى « المعاينة » و « المشاهدة »

(١) ذكر الأب لويس شيخو أن الهلال صدر فى تشرين الأول (أكتوبر ١٨٩١) ، وهو وهم .

(٢) صدرت المقتطف أولا فى بيروت سنة ١٨٧٦ عن الدكتورين يعقوب صروف وفارس نمر ، ثم انتقلت إلى مصر بعد ذلك بخمس سنوات حيث ظلت توالى إصدارها إلى سنة ١٩٥٢ .

و « التجربة » ، كما كان يفعل الجاحظ ، وكما أوصى مؤرخنا « ابن خلدون » أن يفعل المؤرخون حين يؤرخون . فنرى جرجى زيدان يحصل على ترخيص من وزارة الأوقاف بتفقد الآثار العربية ، ثم يجشم نفسه عناء الرحلة والنقلة إلى الآثار التى تحدث عنها فى كتابه ، حتى يكون كلامه كلام الخبير المجرب ، ثم هو لا يبالى أن يرحل فى سبيل « المعاينة التاريخية » إلى ما وراء « حلفا » آخر الحدود المصرية ، ويقول فى مقدمته لكتاب « تاريخ مصر الحديث » : « فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ، ولا سيما ما كان منها قديماً ، كجامع عمرو ، وجامع ابن طولون ، والجامع الأزهر ، وجامع السلطان حسن ، وجامع السلطان برقوق ، وجامع قايت باى ، وجامع الغورى وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها ، وتسلقت ما صعب مسلكه منها ، ولا سيما أسوار القاهرة القديمة وأبوابها ، كباب النصر ، وباب الفتوح ، وباب الشعرية وغيرها . ومن هذه الأماكن ما قد تداعت أركانه وصعب الصعود إليه إلا بالمخاطرة . فكثيراً ما كنت أخاطر بحياتى لهذه الغاية . ومن الآثار التى تفقدتها ، ما عدا الجوامع والمشاهد والتكيات والشوارع ، قصر الشمع أو دير النصارى فى مصر القديمة ، ودار التحف العربية فى جامع الحاكم بشارع النحاسين ، وغير هذه من الأماكن فى القاهرة وضواحيها كالقناطر الخيرية وغيرها .

أما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها أيضاً ، ولا سيما ما هو منها فى مصر العليا ، مبتدئاً من أهرام الجيزة بجوار القاهرة ، إلى ما وراء وادى حلفا آخر حدود مصر ، فزرت خرائب سقارة ، وأسنا ، وطيبة ، والكرنك ، وبيبان الملوك ، وجبل السلسلة ، وأنس الوجود ، وأبا سنبل وغيرها . ومثل ذلك آثار مصر السفلى مبتدئاً بالمطرية ، فأتريب فغيرها . وفى مصر العليا فضلا عن الآثار المصرية القديمة آثار استحكامات وبنايات بناها المماليك أو غيرهم فى حال محاربتهم حكومة البلاد أو دفاعهم عنها . كل هذه الأماكن تفقدتها جيداً إتماماً لمعدات التأليف . . » .

ومن هنا يتضح لك منهج جرجى زيدان فى تأليفه ، فهو ليس جماع مادة ، ولا حاشد معارف ، بقدر ما هو محقق لها ومعاين لها بالنظر ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وتمتاز كتابات جرجى زيدان — وخاصة العلمية — بحسن عرضها ، وتنسيقها ، وتنظيم الأفكار فيها . ولعله تأثر فى هذا بكتابات المستشرقين ودراساتهم ، فهو ينحو نحوهم من طول ما عاناه من مطالعة كتبهم وبحوثهم ، وقد وفق الله جرجى زيدان إلى أن يضع معلوماته الغزيرة ودراساته الجادة فى أسلوب علمى واضح مشرق العبارة ، فى غير تعمل ولا تصنع ولا تعقيد ولا غموض . فهو يؤدى إليك المعانى المرادة فى بلاغ حسن بعيد عن الزخرفة والوشى . وينزل الألفاظ منازلها على أقدار موضعها من الكلام ، وفى ترسل سهل يسير لا معاظلة فيه ولا تكلف . وقد أحسن المغفور له أنطون الجميل نعت أسلوب جرجى زيدان بقوله : « من الكتاب من هم كالسيل الجارف المروع ، يتدفق مرغياً مزبداً ، فيثب وثبات عظيمة ، وينحدر شلالات فخمة ، يقف عندها المرء متهيباً . ومنهم من يشبه ذلك الجدول المترقرق على الحصباء ، العاكس فى قاعه الصافى زرقة الماء ، يناغيه على ضفتيه الزهر الندى ، ويطرب الأسماع بخريره الشجى . وليس زيدان ذلك السيل الجارف ، ولا هذا الجدول المترقرق ، بل هو يشبه النهر الهادئ ، كنهر النيل مثلا فى واديه ، يسير بكل سكون ووقار ، فيحمل فى طياته الحياة والثروة ، فيحول الجدب خصباً ، والتراب تبراً . . . » ومن هنا وجدت مؤلفات جرجى زيدان وكتاباته ، وحتى رواياته ، سبيلها إلى نفوس القراء فى كل أرض عربية أو تعرف العربية .

ونستطيع أن نقسم مؤلفات جرجى زيدان إلى مؤلفات تاريخية ، ومؤلفات فى اللغة ، ومؤلفات فى تاريخ الأدب ، ومؤلفات فى الاجتماع ، وروايات .

أما مؤلفاته التاريخية فهى :

١ — تاريخ مصر الحديث .
٢ — تاريخ التمدن الإسلامى .
٣ — تاريخ العرب قبل الإسلام .
٤ — تاريخ الماسونية العام .
٥ — تراجم مشاهير الشرق .
٦ — التاريخ العـــام .
٧ — تاريخ إنكلترا .
٨ — تاريخ اليونان والرومان .
٩ — أنساب العرب القدماء .

أما مؤلفاته فى اللغة فهى :

١ — الفلسفة اللغوية .
٢ — تاريخ اللغة العربية .

أما مؤلفاته فى الاجتماع فهى :

١ — علم الفراسة الحديث .
٢ — طبقات الأمم .
٣ — عجائب الخلق .

وليس له فى تاريخ الأدب إلا كتابه الخالد : « تاريخ آداب اللغة العربية » فى أجزائه الأربعة .

أما رواياته فيبلغ عددها اثنتين وعشرين رواية تدور مع تاريخ العرب من الجاهلية ، ومع تاريخ الإسلام منذ الفتوح إلى العصر الحديث .

وعلى الرغم من أن جرجى زيدان قد أفاد فى بحوثه ودراساته من كتب المستشرقين والأجانب ، فأن كثيراً من كتبه ورواياته قد ترجم إلى لغات أجنبية وشرقية . ولا يقولن قائل إن بضاعة المستشرقين قد ردت إليهم بهذه الترجمات ! فإن كتب جرجى زيدان مملوءة بمعارف ومعلومات من استنباطات الرجل واجتهاداته الكثيرة الموفقة التى لقى فيها المستشرقون وغير العرب أشياء جديدة عليهم . ويكفى أن نذكر هنا رأى العالم المنصف الدكتور يعقوب صروف فى مؤلفات جرجى زيدان على جملتها : « . . . واستخلص من ذلك كتباً ممتعة فى آدابها ، تشهد له بسعة الاطلاع ، وأصالة الرأى ، والبراعة فى التبويب والتنسيق ، فكان لهذه الكتب شأن كبير شرقاً وغرباً ، وترجم بعضها إلى كثير من اللغات الشرقية والغربية . وبحث فى تواريخ دول الإسلام . وألف فيها كتاباً جليلا ، وبنى على نوادرها سلسلة من الروايات التاريخية الفكاهية ، جمع فيها زبدة تواريخ تلك الدول على أسلوب لا يمله القارئ . . . »[1]

ثالثاً : كتاب تاريخ آداب اللغة العربية

تمتاز كتب جرجى زيدان فى التاريخ والأدب واللغة والسير والتراجم بأصالتها ، وبأنها أثرت المكتبة العربية ، وبأنها فتحت فى البحث العلمى ميادين جديدة لم يكن للناس فى عهده بها عهد . . . ويكفى لبيان حيوية هذه الكتب أنها شغلت العلماء والباحثين والناقدين بنقدها ومناقشاتها . والكتاب الجيد هو الذى يثير من القضايا ما لا يدع للناس سبيلا إلى السكوت عنه . وقد كان جرجى زيدان من العلماء الذين يرحبون بالنقد ولا تضيق صدورهم به . وكثيراً ما رأيناه يستحث العلماء على نقد مؤلفاته ، ولا يكتفى منهم بتقريظها ، كما كانوا يفعلون فى عصره — ولا يزالون يفعلون — إبقاء على الود وإيثاراً للعافية . . . ومما يؤكد هذه الحقيقة أنه لما أصدر روايته « المملوك الشارد » فى سنة ١٨٩٢ أهدى نسخة منها إلى صديقه الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير المقتطف رجاء الكتابة عنها . وندع الدكتور صروف يكمل بقية الحديث قائلا : « تلقينا بالأمس نسخة من رواية المملوك الشارد التى وضعها جناب صديقنا الأديب جرجى أفندى

(١) مجلة المقتطف — عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ — ص ٢٨٤ .

زيدان ، فاعتذرنا عن انتقادها ، وأردنا أن نقرظها بذكر موضوعها وإظهار محاسنها ، والإغضاء عما نظنه عيباً فيها ، فأبى إلا أن ننتقدها انتقاداً ، فأجبنا الطلب وقرأنا الرواية على ما نحن فيه من كثرة الأشغال ، وضيق الوقت ، وعلقنا عليها السطور التالية . . . »[1]

ولما ظهر كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » سنة ١٩١١ صبر النقاد عليه حتى ظهر جزؤه الثانى بعد الأول ، فاستقبلوه بالنقد والتعليق والمناقشة — مما سنعرض له بعد قليل — ولكن مؤرخنا العظيم لم يجزع للنقد ، ولم يهتز له ، بل انتضى قلمه الهادئ الرزين يرد الحجة بالحجة ، ويقرع البرهان بالبرهان ، فى أدب جم ، وعلم غزير ، وصبر جميل ، حتى لم تبد من بين شفتيه لفظة نابية . . . أو كلمة جارحة .

والحق أن كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان يعد رائداً فى التأليف فى تاريخ الأدب العربى على نهج لم يسبق إليه ؛ ومن هنا كان الاهتمام بهذا الكتاب ، لمكانه من الريادة فى هذا الميدان .

والحق — أيضاً — أن جهداً كريماً فى هذا الميدان قد سبق به الشيخ حسين المرصفى فى كتابه « الوسيلة الأدبية » الذى تحدثنا عنه فى العدد السادس من المجلد الرابع من « تراث الإنسانية » ، فقد خطا المرصفى خطوة — على صغرها — فى ميدان التأريخ الأدبى على حسب العصور ، لا على حسب الموضوعات ودراسة النصوص كما كان يفعل القدماء . وهذه حقيقة لا ينبغى أن يفوتنا التنويه بها فى مقام التحقيق .

وجاء بعد الشيخ حسين المرصفى تلميذه فى دار العلوم المرحوم حسن توفيق العدل الذى تخرج فيها سنة ١٨٨٧ ، أى قبل وفاة أستاذه المرصفى سنة ١٨٩٠ بثلاث سنوات . فتنبه إلى ما فى تأريخ الأدب حسب العصور من مزية . وأكد هذا المعنى فى نفسه ما أتيح له من بعثة فى ألمانيا واتصال بالمستشرقين هناك ، وخاصة « بروكلمان » الذى كان قد وضع كتابه فى تاريخ الأدب العربى على طريقة العصور ، وإن كان لم يظهر مطبوعاً إلا فى سنة ١٨٩٨ . وأعجب المرحوم حسن توفيق العدل بهذه الطريقة ، فلما عاد من ألمانيا ليشتغل بالتدريس فى دار العلوم قدم هذه الطريقة إلى طلبته فيها على هيئة مذكرات عنوانها « تاريخ آداب اللغة العربية » . ويذكر المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد أنها طبعت بعد وفاته سنة ١٩٠٦ بمطبعة مدرسة الفنون والصنايع الخديوية[1] .

وجاء المرحوم محمد بك دياب — وهو من رجال دار العلوم أيضاً — فأصدر فى التأريخ الأدبى على وفق العصور كتابه الموسوم : « تاريخ آداب اللغة العربية » الذى ظهر فى جزءين سنة ١٨٩٩ — ١٩٠٠ م . وانتهى القرن التاسع عشر بهذه الكتب الثلاثة فى تاريخ الأدب العربى على حسب العصور ، ألفها ثلاثة من أساتذة دار العلوم أو أبنائها .

وجاء القرن العشرون فإذا بالأستاذ محمد حسن نائل المرصفى[2] يصدر فى سنة ١٩٠٨ كتابه : « أدب اللغة العربية » مرتباً ترتيباً زمنياً كذلك . وفى سنة ١٩٠٩ يظهر كتاب « أدبيات اللغة العربية » لجماعة من أبناء دار العلوم هم محمد عاطف ، ومحمد نصار ، وعبدالجواد عبد المتعال . ولا يطول بنا الزمن بعد هذا أكثر من عامين اثنين حتى نرى مؤرخنا جرجى زيدان يصدر كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » على نحو واسع مبسط مفصل لم يألفه الناس فيما صدر قبله من كتب فى

(١) مجلة المقتطف — السنة السادسة عشرة — سنة ١٨٩٢ — ص ٣٤٧ .

(٢) كان الشيخ محمد حسن نائل المرصفى من نوابغ الأدباء فى وقته ، وهو أزهرى ، ولم يتعلم فى دار العلوم كما ذكر ذلك خطأ خير الدين الزركلى فى « الأعلام » ونقل الخطأ عنه عمر رضا كحالة فى « معجم المؤلفين » . ومن آثاره فى الصحافة الأدبية مجلة « الجديد » التى كانت تحفة رائعة . توفى سنة ١٩٣٥ .

تاريخ الأدب العربى . ويظهر الجزء الأول من هذا الكتاب فى سنة ١٩١١ بهذا الاسم الجديد لهذا العلم الذى هو من مبتكرات جرجى زيدان . وقد سبق جرجى زيدان المرحومين حسن توفيق العدل ومحمد دياب ومحمد حسن نائل المرصفى ، ومحمد عاطف وزملاءه إلى تسمية هذا العلم بعلم « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فإنه فى سنة ١٨٩٤ وفى السنة الثانية من مجلة « الهلال » كان قد نشر فصولا تحت عنوان : تاريخ آداب اللغة العربية ، فكان بذلك أول واضع لاسم هذا العلم ، وعنه أخذ الأساتذة السابق ذكرهم عناوين كتبهم التى سبقوا بها فى الصدور والظهور منذ سنة ١٨٩٩ ، وإن كان كتاب جرجى زيدان لم يظهر — على شكل كتاب — إلا فى سنة ١٩١١ .

وقد يكون جرجى زيدان على حق حين يقول عن نفسه إنه أول من كتب فى « تاريخ الأدب العربى على هذا النحو ، وإنه أول من سمى هذا العلم باسم « تاريخ آداب اللغة العربية » ؛ فإن الفصول التى بدأ بنشرها فى مجلة الهلال منذ سنة ١٨٩٤ تحت هذا العنوان الجديد ، هى أقوى مؤيد لدعواه ، على أن جهود هؤلاء الرواد الذين ذكرناهم فى هذا السبيل لا يجوز إغفالها أو التقليل من قدرها .

وقد استقبل الدكتور يعقوب صروف الجزء الأول من « تاريخ آداب اللغة العربية » بكلمة فى مقتطف أغسطس سنة ١٩١١ تكاد تكون تقريظاً للكتاب وعرضاً موجزاً له ، قدمها بهذه الأسطر : « لصديقنا جرجى أفندى زيدان — صاحب الهلال — فضل لا ينكر على أبناء العربية ، بما ألفه فيها ، وآخر ما أتحفنا به الجزء الأول من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وهو يبحث فى تاريخ آداب هذه اللغة فى عصر الجاهلية وعصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى » .

واكتفى الدكتور صروف فى كلمته عن الجزء الأول بالتقريظ والعرض ؛ فلما ظهر نقد الجزءين الأول والثانى لحفنة من أفاضل العلماء ، لم يجد « صروف » بدأ — حين حديثه عن الجزء الثالث فى عدد سبتمبر من المقتطف سنة ١٩١٣ — من أن يدخل ميدان النقد بكلمة وجيزة يقول فيها : « ولا شبهة فى أن كثيراً من منقولاته وأحكامه يفتقر إلى التحقيق والتمحيص ، ولكن ذلك يكون بعد هذا الجمع والتبويب . . » ويلاحظ ما فى هذه الكلمة من كياسة ولباقة ؛ فقد رضى الناقد هنا بمرحلة الجمع والترتيب — على ما فيها من مآخذ وأخطاء ، على أن يأتى التحقيق بعد ذلك فى مرحلة تالية . . . ! والحق أن كلمة الدكتور صروف هنا كانت دفاعاً عن صديق من صديق ، فى معركة سل عليه النقاد فيها سيوف نقدهم !

وتتجلى الروح العربية الخالصة فى مؤلفات زيدان عامة ، وفى « تاريخ آداب اللغة العربية » خاصة ، فهو يدافع عن العرب فى كل موقف ، ويغلى فى تقديرهم إلى درجة كبيرة ، ويضعهم من حيث الثقافة والعقلية فى مستوى لا يقل عن مستوى الأمم ذات الحضارات القديمة كاليونان والرومان ، وينفى عنهم ما قد توهمه البداوة جهالة وتخلفاً . فيقول مثلا فى موضع الحديث عن درجة ارتقاء عقولهم : « وقد يتبادر إلى الأذهان أن أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجية ، لبعدهم عن المدن وانقطاعهم للغزو والحرب . . . ولكن يظهر مما وصل إلينا من أخبارهم أنهم كانوا كبار العقول ، أهل ذكاء ونباهة واختبار وحنكة . وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم ، وهى تدل على صفاء أذهانهم ، وصدق نظرهم فى الطبيعة وأحوال الإنسان ، مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة »[1] ويذهب فى تقدير حكمتهم درجة أخرى أكثر إغلاء فى المرمى ، فيعدحكم زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة مما « لا يقل شيئاً عن أحكام أكابر الفلاسفة . . . »[2].

(١) تاريخ آداب اللغة العربية — الجزء الأول — طبعة سنة ١٩٥٧ — ص ٣٤ . (٢) المصدر نفسه ص ٣٥ .

ثم يمضى جرجى زيدان فى إعظام تقديره للعلوم عند عرب الجاهلية فيقرر « أن العرب عرفوا كثيراً من الأمراض ومعالجتها ، وناهيك بما عرفوه وتوسعوا فيه من أحوال الأعضاء وأوصافها ، وهو من قبيل علم التشريح ، وهم يعبرون عنه بخلق الإنسان . وقد ألف أدباء المسلمين كتباً كثيرة فى هذا الموضوع نقلا عن العرب ، سيأتى ذكرها بين مؤلفات أهل اللغة . والمتأمل فيما حوته من أسماء الأعضاء وأوصافها يتبين له أن أولئك الجاهليين كانوا على معرفة بتشريح الأعضاء . . »[1].

وقد بلغ من غلو جرجى زيدان فى هذا التقدير أن الدكتور شوقى ضيف — الذى عهد إليه تحقيق الطبعة الأخيرة من «تاريخ آداب اللغة العربية» والتعليق عليها، والإضافة إليها — وجد نفسه مضطراً إلى أن يعلق على هذا الغلو قائلا : « ينبغى ألا نبالغ فى معرفة عرب الجاهلية بالطب ، فإن ما كان عندهم من ذلك لا يتجاوز ملاحظات أولية بسيطة »[2] ! !

ولم يُخَلّ جرجى زيدان بين العرب ومعرفتهم لعلم تاريخ آداب اللغة العربية وسبقهم إليه ، كسبقهم فى موضوعات أخرى . ويقرر — فى هذا الشأن — أن كتب التراجم التى ألفها العرب فيها كثير من علم تاريخ الأدب ، لأنهم يشفعون الترجمة بما خلفه المترجم له من الكتب ، ويبينون موضوعات هذه الكتب ، وقد يجاوزون هذا التبيين إلى وصفها[3]. وعد من هذه الكتب المتخصصة فى البحث عن المؤلفين ومؤلفاتهم كتاب « الفهرست » لابن النديم ، و « مفتاح السعادة » لطاشكبرى زاده ، و « كشف الظنون ، عن أسامى الكتب والفنون » لحاجى خليفة ، و « أبجد العلوم » لصديق حسن خان القنوجى الهندى من علماء المسلمين فى القرن التاسع عشر .

وعاد جرجى زيدان بعد قليل ليصحح الرأى فى هذا الموضوع الذى أثاره فقال إن هذه الكتب وأمثالها تعد من المآخذ الأساسية لدرس آداب اللغة ، ولكنها لا تصح أن تسمى تاريخاً لها بالمعنى المراد بالتاريخ اليوم[1]

وتتجلى القيمة الحقيقية لكتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان فى مزايا كثيرة تنكشف بأدنى نظرة عند القارئ المحقق المتفطن لقيمة ما يقرؤه ، وأول هذه المزايا ما هدف إليه جرجى زيدان من « بيان منزلة العرب بين سائر الأمم الراقية ، من حيث الرقى الاجتماعى والعقلى » . ولم يتخل هذا الهدف عن عينى « زيدان » لحظة واحدة فى خلال الألف وخمسمائة صفحة التى يحتويها هذا الكتاب الضخم .

على أن جرجى زيدان لم يكتف — فى معرض إثباته لحقيقة العقلية العربية الخصبة — بتقريرها فقط ، ولكنه يثبت بالوقائع والأدلة ما تقلبت عليه عقول العرب وقرائحهم ، وما كان لهم من أثر فى العصور المتعاقبة عليهم ، وما كان لتلك العصور وأحداثها من أثر فى تاريخ تطورهم العقلى والحضارى .

ولا يكتفى صاحبنا بالوقوف عند هذا الحد أو بلوغ هذا المبلغ ، ولكنه يقف عند كل علم من علوم العرب وقفة طويلة مستأنية ، يتابع فيها نشأته ، وتطوره ، ويراقب — مراقبة دقيقة واعية — نموه ونضجه وتشعبه وانحلاله أو ازدهاره . فعل ذلك فى الشعر الجاهلى ، وفى العلوم الطبيعية والرياضية فى العصر الجاهلى ، وفى الخطابة فى الجاهلية وصدر الإسلام . وفعل مثل ذلك وأكثر منه فى العصر الأموى والعباسى والمغولى والعثمانى والعصر الحديث الذى يبدأ منذ بداية القرن التاسع عشر . ففى النحو — مثلا — نراه يتحدث عن نشأته ، وأول

(١) المصدر نفسه ص ١٩٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٩ بالهامش .
(٣) مقدمة جرجى زيدان لكتاب تاريخ آداب اللغة العربية — ص ٩ .

(١) المصدر السابق ص ١٠ .

من علله ، وأول من ضبط قواعده وألف فيه ، ومذهب البصريين والكوفيين . وكل هذا فى معرض الحديث عن النحو فى العصر العباسى الأول . فإذا بلغ العصر العباسى الثانى عالج موضوع النحو والنحاة فيه معالجة ملائمة ، فإذا بلغ — بعد عشرات وعشرات من الصفحات — العصر العباسى الثالث تناول موضوع النحو والنحاة فيه على ضوء ما تطور من دراسته ، مع بيان ما حدث فيه من تخلف أو توقف أو ابتكار ، وهكذا يمضى فى بقية العصور حتى العصر الحديث .

وهكذا يتناول الرجل كل علم ، وكل موضوع فى كل عصر من عصور الأمة العربية ، فيلقى عليه من الأضواء ما يكشف عن حقيقته ونموه أو تخلفه .

ولا يرضى صاحبنا من الحديث عن موضوعات العلوم وفنون الأدب بهذا القدر ، ولكنه يقف عند رجال هذا الموضوع ، أو أعلام هذا الفن ، يترجم لكل واحد منهم ترجمة قد تقصر إلى بضعة من السطور وقد تطول إلى بضع من الصفحات . فترجمته للإمام مسلم صاحب الجامع الصحيح فى حديث الرسول عليه السلام تبلغ ستة أسطر[1] ، وترجمته للمؤرخ الأديب الشاعر صلاح الدين الصفدى صاحب كتاب « الوافى بالوفيات » تبلغ أربع صفحات أو تقاربها[2] .

ومن المؤرخين والمؤلفين من يكتفى فى تراجمه للرجال بذكر أخبارهم التى ينقلها عن مصادر ومراجع لا يرى ضرورة للإشارة إليها . ولكن جرجى زيدان قد أفاد من المستشرقين فى هذه الناحية ، فهو يذكر فى كل ترجمة المصادر والمراجع التى يمكن الرجوع إليها لمن يريد أن يتوسع فى الموضوع ، أو لمن يريد أن يهتدى إلى مآخذه ومصادره . ولقد كان بعض المؤرخين العرب يكتفى بذكر المصادر والمآخذ جملة فى صدر كتابه أو فى مقدمته ، كما فعل مؤرخنا المصرى العسقلانى « ابن حجر » فى كتابه « الدرر الكامنة ، فى أعيان المائة الثامنة » المطبوع بحيدر أباد الدكن بالهند سنة ١٣٤٨ هـ سنة ١٩٢٩ م . ولكن جرجى زيدان يذكر المآخذ والمصادر عقب كل ترجمة لكل علم ، شاعراً كان ، أم خطيباً ، أم مؤلفاً ، أم فقيهاً ، أم مفسراً ، أم محدثاً ، أم لغوياً ، أم صحافياً . . .

ولا يكتفى هنا بالمصادر العربية ، ولكنه يضيف إليها المصادر الأجنبية — أوربية كانت أم أمريكية . ففى ترجمته — مثلا — للشاعر الجاهلى : « تأبط شرا » يذكر مآخذ الترجمة لحياته على هذا النحو قائلا : « وأخباره فى الأغانى ٢٠٩ جـ ١٨ ، والشعر والشعراء ١٧٤ ، وخزانة الأدب ٦٦ جـ ١ . وكتب عنه بور BAUR بالألمانية مقالة فى سيرة حياته وشعره ، فى المجلة الشرقية الألمانية سنة ١٨٥٦ »[1] .

ولا تقتصر المصادر والمآخذ التى يسجلها جرجى زيدان فى تراجم الأعلام الأدبية على القديمة ، ولكن الرجل كان متابعاً لأحدث الكتب فى وقته . ففى ترجمته للمؤرخ بدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ يضيف إلى مآخذ ترجمته كتاب « الخطط التوفيقية » لعلى مبارك باشا . وفى ترجمته للشاعر الجاهلى : المتلمس ، يضيف إلى المصادر القديمة مصدراً معاصراً له وهو كتاب « شعراء النصرانية » للأب لويس شيخو اليسوعى المتوفى سنة ١٩٢٧ .

وحين يذكر جرجى زيدان كتب المؤلفين والأعلام الذين يترجم لهم ، أو دواوين الشعراء الذين يتناولهم بالدراسة ، لا يكتفى بذكر أسماء تلك الكتب وعناوينها ، ولكنه يشير إلى أماكن نسخها الخطية إن كانت مخطوطة ، وإلى أماكن طبعها وتاريخ الطبع إن كانت مطبوعة . وقد استعان فى ذلك العمل بالجهد الضخم الذى بذله المستشرق الألمانى بروكلمان فى كتابه « تاريخ الأدب

(١) الجزء الثانى من تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٤٦ .
(٢) الجزء الثالث — ص ١٧٤ — ١٧٨ .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ١ ص ١٦٢ .

العربى » . ولكنه لم يكن فى الأمر كله عالة عـلى بروكلمان، فقد أفاد من رحلاته وزياراته هو المتعددة إلى مكتبات أوربية كثيرة ، كما أفاد من تردده على « دار الكتب المصرية » واستئناسه الدائم بفهارسها . كما أفاد خاصة من مكتبة المرحوم أحمد تيمور باشا .

وتعد تعريفات جرجى زيدان بالكتب التى خلفها الفكر العربى الإسلامى على مر العصور حى عصرنا الحديث الذى ظهر فيه كتابه — أدق وأوجز تقويم لهذه الثروة الطائلة من إنتاج الثقافة العربية، والعقلية الإسلامية. فقد يقوم الكتاب أو ديوان الشعر فى سطر أو فى بضعة أسطر ، أو فى صفحة كاملة أوقريب منها ، فيقدم إلى القارئ صورة صحيحة دقيقة عن الكتاب الذى يقومه .

ولا شك أن هذا التعريف للكتب التى ظهرت فى العربية على مر العصور يعد مرآة صادقة صافية لتطور الحياة الفكرية عند العرب ، كما يعد مقياساً دقيقاً لهذا التراث الضخم ، وميزاناً مضبوطاً لمد التيارات الفكرية العربية وجزرها .

وإذا كان كثير من تلك الكتب التى وصفها جرجى زيدان حتى وفاته سنة ١٩١٤ قد تغير حاله إلى الطبع بعد أن كان مخطوطاً ، كما أن كثيراً من تراجم الرجال قد استحدث فيها دراسات وكتب جديدة منذ وفاة جرجى زيدان حتى يومنا هذا ، وإذا كانت موضوعات البحث حتى عصر زيدان قد جد عليها دراسات جديدة لم تكن فى عهده ، كما أن كشوفاً أدبية ولغوية وتاريخية قد ظهرت فى الميدان منذ لقى جرجى زيدان ربه ، فإن طبعة جديدة منقحة مزيدة من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » كانت ضرورية . ولقد نهض بهذا العبء الضخم رجل من علمائنا حمّال لمثل هذه الأعباء، هو الدكتور شوقى ضيف الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

وظهرت الطبعة الجديدة من « تاريخ آداب اللغة العربية » بتحقيقات الدكتور شوقى ضيف وتعليقاته وتصويباته واستدراكاته وإضافاته الثمينة سنة ١٩٥٧ . ومن عجائب المقدور أن يقوم الدكتور شوقى ضيف بعد أربعة وأربعين عاماً بتحقيق أمنية الدكتور يعقوب صروف التى تمناها على المؤلف فى حياته بتحقيق الكتاب وتمحيصه . ولا أحسب الدكتور شوقى ضيف قد بلغ الغاية من هذا ، ولكن مجهوده الضخم المضنى يظهر واضحاً فى كل صفحة من صفحات هذه الطبعة .

ومن مظاهر الروح العلمية فى هذه الطبعة الجديدة «لتاريخ آداب اللغة العربية» أن الدكتور شوقى ضيف قد أسقط عنصر المجاملة من حسابه ، مع أن ولدى جرجى زيدان هما اللذان ندباه للقيام بهذا العمل . فنراه يصحح الخطأ فى حرية تامة فى التعبير . فقد عدّ جرجى زيدان الشاعر « عبدالله بن الدمينة » من شعراء الجاهلية . وهنا نجد فى الهامش تعليقاً من المحقق يقول فيه : « أخطأ المؤلف فى عد ابن الدمينة من شعراء الجاهلية ، فهو إسلامى »(١) . ولا نمضى فى سرد أمثلة من هذه التحقيقات الثمينة ، فهى كثيرة واضحة تشهد بعلم المحقق وسعة اطلاعه وطول مراجعته ومعاودته للمصادر والمراجع . ولكن يظهر أن الدكتور شوقى قد أجاز لنفسه التغيير والتعديل المطلق فى مادة الكتاب . كما فعل فى صفحة ٢٤ من الجزء الأول — مثلا — فقد أباح لنفسه أن يصلح قليلا فى النص كما يعترف هو نفسه فى الهامش . بل جاوز الدكتور شوقى ضيف الحد فى صفحة ٢٤٦ من هذا الجزء أيضاً ، فوضع أسماء أربعة من رجال الحديث المشهورين فى العصر الأموى بدلا من أربعة آخرين مغمورين وضعهم جرجى زيدان فى الطبعات السابقة . وكان من الممكن أن يبقى الدكتور شوقى ضيف الأسماء الأربعة التى وضعها زيدان فى صلب الكتاب ، وأن

(١) تاريخ آداب اللغة العربية — ج ١ ص ١٧٨ .

يضع فى الهامش الأسماء الأربعة التى يراها أولى من غيرها . . .

وكما أجاز الدكتور شوقى ضيف لنفسه الزيادة — حيث لا تجوز الزيادة — فى الكتاب ، فأنه أجاز لنفسه الحذف ، والحذف الكثير ، بلا داع يبرره ، ولا سبب يسوغه . ففى مقدمة جرجى زيدان للجزء الثالث التى يرد بها على منتقديه ، نرى المحقق الفاضل يحذف ما يقرب من أربع صفحات تتناول موقف الرجل من المنتقدين ، كما تتناول موضوع انتقاد « تاريخ آداب اللغة العربية » وأسماء ناقديه وإيجاز الرد عليهم . ولا يفوتنا هنا — للتاريخ فقط — أن نذكر أسماء هؤلاء المنتقدين ، وهم الأب لويس شيخو اليسوعى الذى نشر نقده فى مجلة المشرق ، والسيد كاشف الغطاء الشيعى النجفى وقد نشر نقده فى مجلة « العرفان » التى كان يصدرها أحمد عارف الزين فى صيدا ، والأب أنستاس مارى الكرملى ، وقد نشر نقده فى مجلة « لغة العرب » التى كان يصدرها فى بغداد ، وأستاذنا المرحوم الشيخ أحمد الأسكندرى الذى نشر نقده فى مجلة « المنار » فى سنتيها الخامسة عشرة والسادسة عشرة .

ونعود هنا فنؤكد قضية اهتمام جرجى زيدان بالنقد وإيمانه بفائدته وعدم ضيق صدره به . ومن مأثوراته فى هذا السبيل قوله : « لا جدال فى أن الانتقاد أكثر فائدة من التقريظ ، وقد يتبادر إلى الأذهان أن انتقاد الكتب يحط من قدرها أو يذهب بفضل أصحابها ، وهو خلاف الواقع . وإذا رأينا له مثل هذا التأثير أحياناً فلأن الكتاب المنتقد لم يكن يستحق عناية المنتقدين . ولو ترك بلا انتقاد لكان أسرع إلى السقوط . أما الكتب الهامة فأنها تزداد بالانتقاد شيوعاً ورواجاً ، ويزداد أصحابها رسوخاً فى عالم الشهرة »[1] .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية — ج ٣ ص ٤ .

رابعاً : نصوص مختارة

لعل كلام جرجى زيدان نفسه عن « تاريخ آداب اللغة العربية » وأقسامها يكون أصدق تعبير عن قضية كان الرجل أول من حمل لواءها بشمول واتساع وتفصيل ، فلنسمعه هنا يقول : (وإذا نظرنا إلى آداب اللغة العربية وأخواتها الساميات ، رأيناها تنطبق على ما تقدم بوجه اجمالى . أما عند التفصيل فأننا نجد بين آداب هذه اللغات وتلك فرقاً كالفرق بين طبائع الأمتين . فالشعر عند الساميين أقدم آدابهم ، لكن أكثره غنائى ، وليس فيه من الشعر القصصى إلا نتف قليلة . أما التمثيل فيظهر لأول وهلة أنه بعيد عن آداب العرب ، وسنرى أنه موجود فيها . . . ولا غرو إذا امتازت اللغات الأوربية بالشعر القصصى والتمثيلى ، فإن اللغة العربية وأخواتها تمتاز بنوع من الآداب كبير الأهمية ، ليس منه فى لغات الأفرنج إلا نتف ، نعنى « الأمثال » فأنها جزء مهم من آداب اللغات السامية ، ولا سيما العربية والعبرانية ، وتندر فى سواها .

وآداب اللغة العربية التى هى موضوع هذا الكتاب أغنى سائر الآداب السامية ، بل هى على الإجمال أغنى آداب سائر لغات العالم . . . لأن الذين وضعوا آدابها فى أثناء التمدن الإسلامى أخلاط من أمم شتى جمعهم الإسلام أو الدولة الإسلامية ، وفيهم العربى والفارسى والتركى والهندى والسورى والعراقى والمصرى والرومى والأرمنى والبربرى والزنجى والصقلبى وغيرهم . . . وكلهم تعربوا ونظموا الشعر العربى ، وألفوا الكتب العربية ، فى الأدب والنحو والتاريخ والطب والعلم والفلسفة ، فاحتوت آداب اللغة العربية بسبب ذلك على أحاسن القرائح ، وشتات الأخلاق والآداب والطبائع ، وأدخلوا فيها كثيراً من أساليب ألسنتهم الأصلية بدون قصد أو تعمل .

ونريد بتاريخ آداب اللغة العربية بسط ما تقلبت عليه اللغة وآدابها من أقدم أزمانها إلى الآن . . . فهى — بهذا الاعتبار — تقسم إلى أطوار ، لكل منها شأن يمتاز عن سواه ، وقد لاحظنا فى تقسيم هذا التاريخ ما توالى على الأمة من الانقلابات السياسية أو الأدبية ، وما كان من تأثير ذلك على المواهب والقرائح .

ويمكن قسمة تاريخ آداب اللغة العربية حسب علومها وآدابها ، أو حسب الأعصر التى توالت عليها . ونريد بقسمتها حسب العلوم أن نستوفى الكلام فى كل علم على حدة من نشأته إلى الآن ، على أن نبدأ بأقدمها ، ونتدرج إلى أحدثها ، فنبدأ بآداب الجاهلية ، فنذكر تاريخ الشعر مثلا وتراجم الشعراء من نشأته ، وما تقلب عليه من الأدوار فى الجاهلية والإسلام إلى اليوم . ونفعل مثل ذلك فى الخطابة وغيرها من آداب الجاهلية ، وبالفقه والتفسير والأدب والنحو واللغة وغيرها من الآداب الإسلامية . وهكذا نفعل بالعلوم الدخيلة منذ دخولها وما تقلب عليها إلى الآن .

أما قسمتها حسب العصور ، فيراد بها الكلام عن العلوم كلها معاً فى كل عصر على حدة . وهذا الذى اخترناه فى هذا الكتاب ، لأنه يصور حالة العصور المختلفة ، وما يكون من تأثير السياسة وانقلاباتها فى العلم والأدب . ولذلك فقد قسمنا تاريخ آداب اللغة العربية إلى قسمين كبيرين ، يفصل بينهما أهم انقلاب أصاب العرب من أول عهد تاريخهم إلى الآن . . نعنى ظهور الإسلام . فهى بهذا الاعتبار تقسم إلى آداب اللغة قبل الإسلام وآدابها بعده . وقسمنا آدابها قبل الإسلام إلى عصرين : عصر الجاهلية الأولى ، وعصر الجاهلية الثانية ، وقسمنا تاريخها بعد الإسلام إلى أعصر أو أطوار ، تناسب انقلاباتها السياسية أو الاجتماعية ، وهى :

١ — عصر صدر الإسلام .
٢ — العصر الأموى .
٣ — العصر العباسى .
٤ — العصر المغولى .
٥ — العصر العثمانى .
٦ — العصر الحديث .

وقسمنا العصر العباسى إلى أطوار بحسب التقلبات السياسية كما ستراه فى مكانه[1] .

وننتقل من هذا النص إلى نص آخر يعرف فيه جرجى زيدان الشعر ، فيقول : (الشعر من الفنون الجميلة التى يسميها العرب الآداب الرفيعة ، وهى الحفر والرسم والموسيقى والشعر . ومرجعها إلى تصوير جمال الطبيعة . فالحفر يصورها بارزة ، والرسم يصورها مسطحة بالأشكال والخطوط والألوان ، والشعر يصورها بالخيال ، ويعبر عن إعجابنا بها وارتياحنا إليها بالألفاظ ، فهو لغة النفس ، أو هو صورة ظاهرة لحقائق غير ظاهرة . والموسيقى كالشعر . . . هو يعبر عن جمال الطبيعة بالألفاظ والمعانى ، وهى تعبر عنه بالأنغام والألحان ، وكلاهما فى الأصل شىء واحد .

هذا هو تعريف الشعر فى حقيقته ، ولكن علماء العروض يريدون بالشعر الكلام المقفى الموزون ، فيحصرون حدوده بالألفاظ ، وهو تعريف للنظم لا للشعر . . . وبينهما فرق كبير ، إذ قد يكون الرجل شاعراً ولا يحسن النظم ، وقد يكون ناظما وليس فى نظمه شعر . . . وإن كان الوزن والقافية يزيدان الشعر طلاوة ووقعاً فى النفس ، فالنظم هو القالب الذى يسبك فيه الشعر ، ويجوز سبكه فى النثر .

وقد تقدم ابن خلدون خطوة أخرى فى تعريف الشعر ، فقال : « الشعر هو الكلام المبنى على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده ،

(١) الجزء الأول ص ٢٦ — ٢٨ .

الجارى على أساليب العرب المخصوصة به » فهو يجعل التقفية والوزن من شروط الشعر ، ويشترط أيضاً استقلال كل بيت منها بغرضه ، وهو تقييد لا باعث له ، إذ قد ترى فى الكلام المنثور معانى تؤثر فى نفسك تأثير الشعر ، وذلك كثير فى كلامهم ، والحكم فيه للذوق . ومن أصعب الأمور أن نعرف الشعر ، ونجعل له حدوداً جامعة مانعة ، كما نعرف الصرف أو النحو أو الفلك أو غيرها من العلوم والآداب . ولكنك إذا قرأت قولا فيه خيال شعرى تعرفت الشاعرية فيه ، وشعرت بلذة ذلك التعرف وطربت له . وقد يكون ذلك النثر قولا ، وإنما أطربك ما فيه من أساليب الكناية أو الاستعارة . . . فإذا سبكته فى قالب شعرى زاد رونقاً وطلاوة ، فإذا غنيته على توقيع الألحان زدت طرباً به . فالوزن يزيد الشعر طلاوة ، من قبيل التوقيع الموسيقى فى الألفاظ والحركات ، لا من قبيل المعنى .

فإذا قرأنا لبعضهم نثراً يصف به ذهوله فى الحب ، فيقول : « إذا جئت دار الحبيب ليلا لحاجة لى ألتمسها ، فلا أدخل الدار حتى أنسى ما جئت له » فهذا معنى شعرى ترتاح إليه النفس ، لكن ارتياحها يكون أكثر إذا نظم ذلك المعنى شعراً ، كقول المجنون :

فيا ليلَ ! كم من حاجة لى مهمة
إذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيا

ويكون وقعه فى النفس أشد إذا غنى عن لحن مطرب .

وعلى ذلك فيدخل فى الشعر كثير من أقوال العرب التى نعدها من قبيل الأمثال أو الحكم المأثورة المبنية على الكناية ، كقولهم : « المرء بأصغريه لا ببرديه ، وعاد الأمر إلى نصابه ، وصاحت عصافير بطنه ، ونحو ذلك » .

فالشعر بالمعنى لا بالوزن والقافية . . . وقد رأينا بعض متقدمى العرب يرون هذا الرأى فى تعريف الشعر ، فقد قال بعضهم : « الشعر كلام وأجوده أشعره » ولم يقيده بالوزن ولا القافية . وقال آخر : « الشعر شىء تجيش به صدورنا ، فنقذفه على ألسنتنا ») .